

إسهامات مولاي بلحميسي في كتابة التاريخ المحلي من خلال قراءة في كتابه "

تاريخ مازونة"

Contributions of the Historian, Moulay Belhamisi, to the
Writing of the Local History through his Book "*The History of
Mazouna*"

صص 331-346

د.ة حباش فاطمة - Dr. Habeche Fatima

أستاذة محاضرة أ في التاريخ الحديث والمعاصر

قسم العلوم الإنسانية- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن خلدون - تيارت- (الجزائر)

Fatima_hab@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2019/09/16

تاريخ المراجعة: 2019/09/15

تاريخ استقبال المقال: 2019/09/09

الملخص: يعد مولاي بلحميسي من الجيل الثاني للمدرسة التاريخية الجزائرية، حيث برز بكتاباته التاريخية حول تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة، وكان له إسهام علمي وأكاديمي حول التواجد العثماني بالجزائر، ولكن هذا التخصص لم يمنعه بأن يوظف خبرته ولمسته العلمية والأكاديمية في إحياء التاريخ المحلي لمازونة، ومنطقة الظهرة عموما والتأريخ لهما، وباكورتته في هذا المجال كتابه "تاريخ مازونة"، الصادر عن المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1981.

ونحن من هنا نحاول وضع قراءة لكتابه، وإظهار لمسته في كتابة التاريخ المحلي

انطلاقا من مؤلفه حول تاريخ مازونة.

الكلمات المفتاحية: مازونة؛ التاريخ المحلي؛ بلحميسي؛ منطقة الظهرة؛ المؤرخ.

Abstract: Moulay Belhamisi is considered as a pioneer of the Algerian Historical School. He is well-known through his several historical writings about the history of Algeria in the modern era. He has scientific and academic contributions about the Ottoman presence in Algeria, that allowed him to employ his scientific and academic expertise in reviving the local history of Mazouna and the area of Dahra. Thus, his book titled the "*History of Mazouna*" issued by the National institution for publication and distribution in 1981 was his first production.

Accordingly, this study aims at revealing the book content to show his touch in the writing of the local history.

Key words : Mazouna; The local history; Belhamisi; Dahra area; Historian. مقدمة: لاشك أن تنشيط عملية الكتابة التاريخية الوطنية بشكل علمي وأكاديمي تقتضي التنوع في الدراسات والبحوث التاريخية، وذلك بطرح مواضيع متنوعة، مما يجعل العملية تأخذ صفة التعمق والدقة في معالجة الأحداث، وسردها وفق منهج علمي، ومن بين ما يجعل هذه المهمة أكثر جدية وعلمية هي الاهتمام بالتاريخ المحلي للمناطق، بحيث أصبح لزاما على المؤرخين والباحثين في مجال التاريخ ورصد الحقائق التاريخية وجوب معالجتها من إطار خاص، وضرورة توظيف "صفة المحلية" في البحث التاريخي، فالاهتمام بمنطقة أو بيئة معينة كان لها التأثير في صيرورة الأحداث التاريخية يعد في حد ذاته مساهمة في كتابة التاريخ الوطني من زاوية التاريخ المحلي، وتعتبر نقطة إيجابية وإضافة علمية في عملية الكتابة، بحيث تفتح مجال المقارنة والمقاربة في عرض الأحداث بشكل دقيق.

ونجد الكثير من الباحثين وفي وقت مبكر قد أعطوا العناية ولو بشكل محدود بالتاريخ المحلي، ومنهم ابن منطقة الظهرة ومدينة مازونة المؤرخ مولاي بلحميسي، الذي حاول أن يضيف إلى رصيد كتاباته التاريخية من كتب ومقالات أعمالا حول تاريخ منطقتة "الظهرة". ونحن هنا في هذا البحث نحاول عرض بطاقة علمية لكتابه: "Histoire de Mazouna"، لنبين المساهمة والإضافة العلمية التي أوجدها في تجسيد عملية الكتابة في التاريخ المحلي لصالح التاريخ الوطني.

لمعالجة الموضوع اعتمدت خطة علمية مكونة من ثلاث عناصر:

1- التعريف بالمؤرخ مولاي بلحميسي

2- تقديم وعرض محتوى الكتاب

3- القيمة العلمية للكتاب

1- التعريف بالمؤرخ مولاي بلحميسي: مثلما اشتهرت منطقة الظهرة بتراثها الحضاري والفكري في مختلف الحقب التاريخية، والذي ورد عند العديد من المؤرخين، الذين أرخوا لتراثها المادي والمعنوي منذ العهد القديم إلى غاية الفترة المعاصرة، نجدها برزت كذلك بأبنائها الذين خلدوا أسمائهم في حلقة التاريخ سواء صانعين له في فترات مختلفة منهم بن علي بوقرط¹، ولوكيل يوسف²، وأبو طالب محمد بن علي بن

الشارف المازوني³، أو أنهم كانوا من الرعيل الثاني الذي أسس للمدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال ومنهم مولاي بلحميسي، فهو من مواليد إحدى الحواضر التي شملتها الظهرة مازونة في جانفي 1930، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه؛ فتتلمذ على يد شيوخها بالمدارس القرآنية، نهبك عن المدرسة الاستعمارية، ثم انتقل إلى تلمسان لمواصلة تعليمه، ثم مدينة الجزائر أين التحق بالجامعة، وتحصل على شهادة الليسانس في الأدب العام سنة 1958، أكمل دراساته العليا بفرنسا وتحديدًا بأكس بروفانس، وتحصل على الشهادة العليا في الأدب سنة 1963، كما نال شهادة الدكتوراه سنة 1972 ثم دكتوراه دولة من جامعة بوردو سنة 1986.

اشتغل بمجال التعليم فكان أستاذًا للتعليم الثانوي ثم أستاذ مساعد بجامعة الجزائر سنة 1966 و1969، كان عضوًا شرفيًّا بمعهد أناضول أنقرة سنة 1986، نائب رئيس الجمعية الدولية للمؤرخين بمنطقة الحوض المتوسط، وافته المنية سنة 2009 م خلفًا ورائه رصيда مهما من الكتب ذات القيمة التاريخية، حاول من خلالها التأريخ للجزائر أولًا من زاوية التاريخ العام من خلال كتاباته حول الفترة العثمانية، وثانيًا من زاوية التاريخ المحلي بتأليفه كتبًا حول مدينته⁴.

2- تقديم وعرض محتوى الكتاب: لقد عرف مولاي بلحميسي بتأليفه في التاريخ الحديث والمعاصر وخاصة في فترة التواجد العثماني، حيث كانت له عدة إصدارات، لكن في نفس الوقت حاول أن يوظف مهارة التأليف في إظهار الدور الحضاري لمنطقته، بتأليف كتابين حول أهم حاضرتين بمنطقة الظهرة: مستغانم ومازونة، هذه الأخيرة التي سنحاول عرض بطاقة علمية حول محتوى الكتاب الذي ألفه حولها، والتطرق لكل الأفكار التي عالجهها.

أصدر مولاي بلحميسي مؤلفه باللغة الفرنسية تحت عنوان: "Histoire de Mazouna (Des origines à nos jours)", الصادر عن دار النشر العمومية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1981م⁵، وهو عبارة عن كتيب من الحجم الصغير بلغ عدد صفحاته واحد وتسعون صفحة، ذو واجهة بسيطة بلون الأصفر يتوسطها عنوان الكتاب ومحاطة بإطار أحمر، أما خلفيته جاء فيها السيرة الذاتية للمؤلف، وعناوين كتبه، إضافة إلى صورته الشخصية كانت في أعلى الخلفية.

قسم المؤرخ كتابه وفق خطة علمية إلى مقدمة متبوعة بمجموعة عناوين تأخذ طابع الفصول ضمنيا بلغ عددها تسعة عشرة عنوانا، عالج فيها مختلف المحطات التاريخية التي مرت على حاضرة مازونة ومنطقة الظهرة عموما، من العهد القديم مروراً بفترة الفتح الإسلامي ثم العهد العثماني وصولاً إلى الفترة المعاصرة وتحديدًا أثناء فترة تواجد الاحتلال الفرنسي بالمنطقة. كان يتخلل هذه العناوين من حين إلى آخر مجموعة من الصور الفوتوغرافية والخرائط تخدم مضمون الكتاب، لينتهي كتابه بقائمة ببليوغرافية تشمل أهم المصادر والمراجع التي ارتكز عليها في بحثه⁶. وللإشارة مضمون هذه العناوين لم يكن طويلاً ومفصلاً بل نجد العنوان الواحد لا يتعدى ثلاث صفحات وفق نظام الفقرات.

نحاول عرض بشكل مفصل لأفكار الكتاب مع احترام الترتيب الذي أوجده في خطته:

مقدمة (Introduction): استهل كتابه بصفحة مستقلة ورد فيها عنوان ثانوي كتتمة لعنوان الكتاب الرئيسي مفاده " مازونة مدينة صغيرة تاريخ عريق"، أتبعها في صفحة موالية لأبيات شعرية قيلت حول مازونة دون أن يحدد قائلها، بعدها صفحة المقدمة، والتي أشار فيها إلى:

- الرغبة الجامحة التي كانت تراوده دائماً للكتابة حول المنطقة والمدينة خاصة كمحاولة في رأيه للإجابة على كل تساؤلات المهتمين بالمنطقة ومعرفة تاريخها، وكذلك رد الاعتبار لها من خلال استحضار دورها، وحالات التطور التي مرت عليها، وكذا أهم الأحداث الكبرى التي عرفتها طيلة قرون.

- أشار إلى الصعوبات التي واجهته مشيراً إلى أن إنجاز هذا البحث لم يكن بالأمر الهين، والحصول على المادة العلمية الكافية تغطي كل الفترات التاريخية ليس سهلاً. فقد أقر بأن تاريخ الظهرة وعاصمتها كان صامتا ولم يعرف الإحياء والاستحضار في الكتابات والبحوث التاريخية التي جاء فيها فقط كإشارات عامة، كما يشير إلى مسألة التباين في توفر المادة العلمية من مرحلة إلى أخرى، واصفاً إياها بالمتناثرة والقليلة مما يصعب إظهار الحقيقة التاريخية في كل الحقب التاريخية، وفي هذا الصدد أعطى

مثالا على الفترة الوسيطة حيث يشير إلى أن أغلب الكتابات كانت في القرن 9هـ/15م، وهي عبارة عن كتابات جغرافيين أرحالة عرب زاروا المنطقة⁷.

- قدم نقدا علميا للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها والتي تنوعت بين السجلات والروايات الشفوية، وكتابات الرحالة العرب، والأوروبيين، ومراسلات العسكريين، إضافة إلى كتب السير الذاتية للعلماء والأشعار وحتى الأغاني نهيك عن كتب كتبت عن تاريخ مازونة بشكل خاص، منها كتاب ابن منطقتة لوكيل يوسف والذي ألفه إبان الفترة الاستعمارية، والذي يرى فيه دراسة ذات قسمين تاريخي يتحدث عن تاريخ مازونة وأثر وبولوجي تناول عادات وتقاليد السكان في المناسبات الاحتفالات⁸.

- في قلب الظهرة (Au cœur du Dahra): استهل بالتعريف الإصطلاحي والجغرافي لمنطقة الظهرة، بأنها تلك المنطقة الجبلية المحدودة بين البحر شمالا وسهول مينا والشلف جنوبا، كما ذكر أن المصطلح يطلق في العموم على الشمال مقارنة بمصطلح القبلة على الجنوب.

أشار إلى الموقع الإستراتيجي الذي تحتله مازونة في منطقة الظهرة، حيث تتمركز في مفترق الطريق التجاري المؤدي إلى المغرب الأقصى، مما يعطيها بعدا اقتصاديا، نهيك عن وصفه طبيعتها الجميلة والخلابة، متميزة بحدائقها وبساتينها ذات الأشجار المثمرة من تين ومشمش ولوز، وكذا ينابيع المياه العذبة المنتشرة بنواحيها منها عين تيسري، عين الذهب، عين تامدة، كما يشير إلى أنها كانت محل إعجاب كل من زارها، وفي نفس الوقت مفخرة لسكانها، وينتهي هذا العنوان بصورة عن حوض تامدة وصورة عامة عن مازونة⁹.

- المعجبون الأوروبيون (Les admirateurs européens): استحضر في هذا العنصر أهم ما كتب عن مازونة من قبل الرحالة والكتاب الأوروبيين، الذين زاروا أو مروا بها، وسجل في ذلك إجماع على إعجابهم بهذه المدينة وبطبيعتها الخلابة ذات خصوصية "الأصالة" الموجودة عند سكانها في حياتهم اليومية، مضيفا إلى أنهم صنفوها ضمن المدن العتيقة، ومن بينهم مؤرخ ثورة الشريف بومعزة بالظهرة العسكري شارل ريشارد Charles Richard، والطبيعي أنه يعرف مازونة جيدا كونها جزء من الإطار الجغرافي للظهرة، نهيك عن دور سكانها في المقاومة فهو يقول "...مازونة مدينة عربية

وجميلة تقع بين أطراف واد وارينان والشلف، ذات الحدائق الجميلة والغطاء النباتي... موقعها جعلها بأن تكون موطن البربر قبل الرومان... وهي من المدن القليلة بمقاطعة وهران تجمع عناصر الجمال...¹⁰.

هناك نقطة اشتركت في ذكرها كل الكتابات الأوروبية إلى جانب الجمال هي كثرة المآذن والقباب، مؤكدين على الطابع الديني لعمران المدينة، تتخذ فيه المنازل والبيوت نمطا واحدا، مترابطة ببعضها البعض يطبعها اللون الأبيض، فجاك بيرك يرى فيها تلك الصورة المصغرة عن قسنطينة، ندرومة، تنس، القليعة¹¹.

- أصل التسمية (Une ethymologie controversée): أورد بلحميسي الاختلافات حول أصل تسمية مدينة مازونة، فعرض كل الروايات مشيرا في البداية إلى أن الأهمية والإعجاب بعاصمة الظهرة جعلها محل ذكر ووصف لدى الشعراء، والمغنيين، والكتاب، فالبعض قال أنها تعني أرض الرجال الأقوياء، والبعض الآخر يقول مازونة تسمية لموقع روماني قديم مرتكزين في ذلك على الاكتشافات التي وجدت قرب سيدي أمحمد بن علي على يد جغرافيين، والذين أقروا مازو Masur باللاتينية يقابلها مازونة بالبربرية، وهو ما رفضه Demaeght الذي اعتبر مازونة إسم ملك وليس مدينة قديمة سيطر عليها تحت اسم ماسينا¹².

أما لوكيل يوسف ابن المنطقة فقد ربط أصل التسمية باسم ملكة حكمت، ذات مال اسمها موزونة، بينما هناك آخر ذكرها في نفس السياق مقترن بملك اسمه ماتع له ابنة اسمها مازونة، وعندما كان في رحلة صيد اكتشف المكان وانتقل إليه رفقة حاشيته وأطلق عليه إسم ابنته. أما محمد بن يوسف الزباني فقد أعطى طرعا مختلفا بأن مازونة إسم لقبيلة زناتية تدعى ماسونا¹³.

- التأسيس: لمن الامتياز (La Fondation: A qui le privilège?): عالج هذا العنصر من خلال طرح استفهامات وتساؤلات حول تأسيس المدينة، ومن مؤسسها، وعن الظروف التي أنشئت أثناءها، وبالطبع معالجته كانت مثل المرات السابقة من خلال عرض العديد من الروايات، والآراء حول ميلادها، منها رواية السكان المحليين أو القدماء الذين ينسبونهم إلى البربري ماتع الذي كان موجودا قبل مجيء العرب، تقابلها رواية أخرى محلية متداولة بين السكان مفادها مازونة أخ مديونة.

يقابل بلحميسي روايات السكان والتي ذكرها المؤرخ Piesse بروايات أخرى أوردتها مؤرخون، نشأتها بالمغراويين ومنهم ابن خلدون الذي ذكر بأن تأسيسها كان على يد عبد الرحمان زعيم مغراوة في القرن 13م، كما يضيف محمد بن الزياتي أن مازونة قد دمرت سنة 665، ويؤكد لا حقا أبو راس الناصري المعسكري أن مازونة مدينة مغراوة بقيادة منديل بن عبد الرحمان، ويواصل في عرض الآراء مع احترام التسلسل التاريخي منها رأي في الفترة المعاصرة للرحالة البريطاني شو الذي اعتبر تأسيسها محليا على يد السكان في شكل قلعة دفاعية، وعليه ألغى رأي مارمول بأنها رومانية التأسيس بل ببرية ومحلية¹⁴.

العصور البعيدة (Les siècles lointains): تناول هذا العنصر فترة التاريخ القديم من تاريخ مازونة والظهرة عموما، مركزا على الأهمية الإستراتيجية للمنطقة كمجال جغرافي استقطب العديد من الحضارات خاصة في العهد الروماني، فهي شكلت كموقع ومفترق يربط بين عدة اتجاهات جنوبا من الشلف إلى تنس، وأصنام، وأرسينيا، وهذا ما حمس الرومانيين لاتخاذها كمركز عسكري¹⁵.

عرض تاريخ تأسيس مازونة من خلال كتابات الرحالة الأجانب منهم الإسباني مارمول Marmol، الذي جال بالمغرب خلال القرن 16، فأقر أنها مدينة رومانية مستندا على النقوش والآثار واللوحات المنقوشة. وفي المقابل وحسب تحليل مولاي بلحميسي على الوجود الروماني نجده يربطه بالوجود العام بالظهرة مستندا على الاكتشافات والبقايا التي وجدت بمناطق قريبة منها بنواحي رورنو Renault (سيدي أمحمد بن علي) وغيرها من المناطق¹⁶.

يعارض رأي مارمول فلورنشي (Florenchie) الذي لا يقر بالاستيطان الروماني البشري، مؤكدا على الوجود العسكري فقط، وأن المنطقة الممتدة من تنس إلى الشلف لم يوجد بها مدن رومانية. كما أن رحالة آخر بلين يشير من زاوية اقتصادية على أن المنطقة كانت موطن القمح الأسود والزيت الذي يستخدم لرصف الحمامات الكبرى¹⁷.

أما بالنسبة ليون الإفريقي فنجد في ذكره للفترة القديمة عن مازونة يقر بأنه لاحظ مواقع قرب مازونة هدمت من قبل الرومان غير معروفة أسمائها، ولكن يعلم

بأنه تم رومنتها استنادا على العدد المعبر من الكتابات المنقوشة على القطع الرخامية. لاحقا وتبعاً لعمليات الحفريات قرب مازونة، ومديونة، واكتشاف آثار لقرى رومانية، ومراكز عسكرية، ومزارع بدوار أولاد سلامة، وبلديات الظهر، وواد قري، وقرب بني زنطيس، تدل كلها على الوجود الروماني، كما يضيف بلحميسي معلومة في مرحلة متأخرة بأن الحجارة التي بنيت بها القرية الإستيطانية رونو كانت من بقايا تلك الحجارة الرومانية¹⁸.

- قبل حكم بني عبد الواد (Avant le règne des Abd el wadid): تطرق إلى الوضع السياسي للمنطقة في الفترة الوسيطة، مشيراً إلى القليل من المؤرخين الذين تكلموا عن الظهر قبل حكم ملوك تلمسان، وهناك معلومات محدودة تشير إلى اعتناق السكان للإسلام، ودعمهم بالقوات ضد الصليبيين وحملاتهم، كما أن الوضع السياسي للمنطقة إلى غاية القرن 11م كانت خاضعة إلى القيروان، لكن بعد ظهور الحكم المرابطي، وتوسعه في المغرب الأوسط تم الاستيلاء عليها بعد حملة أرسلها يوسف بن تاشفين بقيادة أبو سعيد الثابت، والذي تمكن من السيطرة على الظهر في 1086 بمساعدة مديونة¹⁹.

بدأت مازونة تعرف التطور والازدهار ابتداء من القرن 12 بفضل موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وبفضل صناعاتها وحرفها وحتى إشعاعها الثقافي، الأمر الذي فتح لها علاقات تجارية مع فاس، تلمسان، القلعة، فهي أصبحت من أهم مراكز الاستراحة للقوافل المارة من قسنطينة إلى مراكش²⁰.

أشار إلى مواقف وأدوار قبائلها منها مغراوة²¹ الذين كانوا على ولاء للأمويين، وبعدها موالين للحفصيين على حساب بني عبد الواد، ثم تبعيتهم للمرابطيين بقيادة يوسف بن تاشفين، والمباركة والدعم الذي تم أبداه لعبد المؤمن بن علي، فقد لقي المساندة ماديا ومعنويا كما أنه عسكر فيها. خضوعها فيما بعد للزيانيين بعد حملات يغموراسن على مغراوة وجعلها جزء من سلطته²².

- الرصيد الحضاري (l'essor culturel): حاول بلحميسي في هذا العنصر الخروج بتاريخ مازونة من المجال السياسي إلى المجال الحضاري والثقافي والفكري، مؤكدا على أن موقعها في الصراعات السياسية والأحداث التاريخية السياسية ومواقف قبائلها

كمغراوة خلال الفترة الإسلامية حيث كانت حلقة في الصراع السياسي لكل سلطة مرت على المنطقة، لكن هذا لم يمنع من أن يكون لها حضور حضاري كمركز إشعاع علمي لمختلف العلوم الإسلامية شأنها شأن تلمسان، ومستغانم، ندرومة، تزخر بشيوخ وعلماء دين منهم القاضي والمؤلف أبو عمران موسى بن عيسى المازوني، وابنه أبو زكرياء²³ يحيى بن عيسى بن أبي عمران صاحب الدرر المكنونة في نوازل مازونة²⁴.

- تحت الراية التركية (Sous La Bannière des Turcs): استحضر مرة أخرى الطبيعة الجغرافية الإستراتيجية لمنطقة الظهرة ومازونة فهي بعيدة عن الخطر الصليبي الإسباني وحملاته على عكس مستغانم، وقلعة بني راشد، الأمر الذي دفع بالعثمانيين اتخاذها مركزا عسكريا، وحتى عاصمة سياسية لباليك الغرب، فحسبهم هي مدينة تتوسط مستغانم وتنس، وهي امتداد طبيعي إلى الداخل الأمر الذي يمكنهم من المراقبة والسيطرة.

نجده يشير إلى أهم البايات الذين توالوا عليها بداية مع الباي بن خديجة، وهو أولهم حيث ترك لأول مرة رفقة حامية تضم 80 خيمة للمراقبة بعد فشل تحرير المرسي سنة 1563 بمازونة، جاء بعده سواق، السايح، شعبان، الزناقي، إلى غاية بوشلاغم الذي حول العاصمة من مازونة إلى معسكر ثم وهران بعد تحريرها²⁵.

أشار كذلك إلى دورها السياسي ليس كعاصمة بايلك فقط وإنما من خلال أولا: دور سكانها في الأحداث السياسية منهم طلبة العلم الذين شاركوا بقيادة شيخهم محمد بن علي الشريف في تحرير وهران سنة 1791. وثانيا من خلال عرضه لمعاناة السكان من الظلم ونظام المخزن وامتيازاته والتجاوزات المالية، فإقامة العاصمة أفقدت الناس أملاكهم ونزعها، الأمر الذي ولد العداء وبرر دعم ومساندة سكان مازونة والظهرة عموما لثورة الشريف الدرقاوي²⁶ ضد باي وهران، فهم فتحوا أبواب المدينة له، لدرجة أن خليفة الباي عدة بن فريحة كان في مهمة لتحصيل الضرائب ولما لمس الضغط والدعم اضطر إلى التخلي عن مهمته والعودة إلى وهران²⁷.

- حاضنة العلماء (Une pepinière de savants): واصل عرضه للدور الحضاري والإسلامي لمازونة مشيرا إلى استمرار مكانتها العلمية من خلال تكوين وتعليم الطلبة علوم الدين والشريعة الوافدين إليها من مختلف المناطق خلال العهد العثماني

وصولاً إلى فترة الاحتلال. فلقد ركز على دور المدرسة مشيراً إلى أن مازونة لم تعد عاصمة سياسية إلا أنها حافظت على مكانتها العلمية، فكانت منارة علم يقصدها الطلبة من مستغانم، ندرومة، وجدة، فقيق، المدية، كانوا يلقون الترحيب من السكان الذين لم يتوانوا في إيواء الطلبة وإطعامهم، ومن أشهر الطلبة زعيم الطريقة السنوسية محمد بن علي السنوسي، الشيخ بن أحمد أبو عبد القادر المشهور بالناصري، والذي تحدث لاحقاً في رحلته عن مازونة والمدرسة ومعلميها وعائلاتها العلمية منهم الكتروسي، الصادق الحميسي اللذان تتلمذا على يدهما²⁸.

- بدايات السيطرة الفرنسية (Les débuts de l'occupation Française): تناول بداية التواجد الفرنسي في المنطقة، مع الإشارة إلى نوع الفئات السكانية الموجودة بها خلال هذه الفترة، وهي متنوعة ضمت أمازيغ مغراوة، العرب، الأندلسيين، الأتراك، الكراغلة، وبعض الإسرائيليين، ثم انتقل إلى الحديث عن مصير هذه الفئات خاصة الكراغلة، والأتراك الذي بدأ وجودهم يزول تدريجياً على إثر عملية الاحتلال، ودور المقاومة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر، مضيفاً إلى ذلك ظهور حركة الهجرة عند السكان من مواطنهم إلى مناطق أخرى منهم سيدي عامر بأولاد العباس ذوي أصول مازونية.²⁹

- مبارزة عبد القادر بيجو (Le duel Abd Al Kader-Bugeaud): من خلال العنوان نجده تطرق إلى التوسع الفرنسي بالظهرة، ورد فعل السكان من خلال مقاومة الأمير عبد القادر، ودعم قبائلها له خاصة سنة 1833 عندما عبر أعيان كل من مليانة، ومازونة، والقليلة الولاء له. لكن في نفس الوقت أشار إلى تباين المواقف بين تأييد مطلق لقبائل الظهرة، والتي حاربت معه على عكس فئة الأتراك، والكراغلة الذين تحفظوا، وحاول بيجو استغلال ذلك ضده خاصة الكراغلة في إطار سياسته ما بين 1842 و1848، الأمر الذي دفع الأمير عبد القادر إلى دخول مازونة عبر حملة سنة 1843 فأحرق مخزن بوعلوقة وانتقم جنده من الأتراك بالنار والدم أشد انتقام، كما قام باعتقال بعضهم وساقهم إلى عاصمته تاقدامت³⁰.

- إضطراب 1845 (La tourmente de 1845): يشير بلحميسي في إطار المواجهة بين الاحتلال والمقاومة الوطنية في الظهرة ميزتها المواجهة بين الأمير وجونتيل Gentil ثم

المواجهة بين سانت أرنو والشريف بومعزة، وهو ما يقصد به اضطرابات 1845، فبعد الأمير لقي هذا الأخير الدعم والمساندة من قبائل الظهرة، ومن سكان مازونة، فهم شاركوا معه في عمليات ضد الفرنسيين وأعدائهم كقتل قايد مديونة الحاج صدوق، وآغا ورسنيس، وقايد صبيح بلقاسم، وكانوا معه في معاركه منها معركة عين مران التي تواجه فيها مع سانت أرنو الذي كان يلاحقه³¹.

-محارق الظهرة (Les enfumades du Dahra): الدعم الذي أبداه سكان الظهرة للشريف بومعزة بدء بمازونة جعلهم تحت رحمة السياسة الانتقامية لبيجو منها توجه سانت أرنو إلى مازونة والانتقام منها لدعمها بومعزة الذي انسحب بعدها إلى عشعاشة، واستمر الانتقام ليطال قبائل الظهرة منهم أولاد رياح، التي أبيدت خنقا بالدخان على يد بليسي Pelissier بغار فراشيش، ونفس المجزرة ارتكبت في حق قبيلة الصبيح بجنوب عين مران بواد شعبة البئر، وفي حديثه عن المجازر اعتمد على المصادر الفرنسية التي تعترف بحماس القبائل للجهاد والمقاومة، كما أرفق حديثه برسومات لمغارة النقمارية والصبيح. وتواصل الحس النضالي وبقي قائما عند سكان الظهرة، والدليل تأييدهم لثورة فليته في 1864³².

استمرار المقاومة بالمنطقة أثر على الحركة الاستيطانية وجعلها محدودة ومتأخرة إلا في حدود 1874 أين بدأنا نلمس استقرار فعلي للمعمرين بالظهرة، وشرع الاحتلال في تأسيس قرى استيطانية لكن بتحفظ كبير تبعا لرد فعل السكان من الأوربيين الذين تسببوا في نكستهم بعد الاستيلاء على أراضيهم، وهو ما يفسر تعرض الدركيين للقتل، والهجوم على المزارع³³.

- لفتة الأمير (Un geste de l'émir): في الواقع أورد بلحميسي في هذا العنصر رسالة اعتراف وتأكيد على مكانة عائلة الكتروسي من خلال توصية الأمير عبد القادر بإبقاء امتيازات العائلة المادية والروحية.. وللإشارة أورد الرسالة بنسختها العربية المخطوطة يقابلها نصها باللغة الفرنسية³⁴.

_ ألماني في مازونة (Un Allemand à Mazouna): تناول فيها بعض الوقفات وأراء الأجانب الذين زاروا مازونة في الفترة الاستعمارية، ومنهم الألماني Henreiech Von Maltsen الذي كانت له رحلة إلى المغرب ما بين 1852 و1857، وتوقف بمازونة وذكرها

في كتابه "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا"، وأعطى وصفا لها حيث يشير إلى أن نزوله بها كان في إطار رحلته من تنس وأرنفيل إلى مستغانم ووهران، حيث أخذ الطريق الجبلي، ودخل مازونة واستقر بها مدة، فأحصى عدد سكانها وقدرهم بحوالي 3000 فرد، ورأى أنها المدينة الوحيدة التي زارها، ولا تزال تحافظ على نمطها العربي في البناء البعيد عن النمط الأوربي، لمستة شرقية تميزها الممرات الضيقة والشوارع، وطبيعة سكانها المحافظين على لباسهم العربي وارتداء البنس جالسين أمام البيوت ذات اللون الأبيض، وذات السقف القرميدي. يضيف كذلك طيلة إقامته لم يصادف أي وجود أوربي ماعدا رئيس المكتب العربي Luca. أرفق هذا بملحق عبارة عن صورة لمازونيين في رقصة جماعية³⁵.

- الثقافة التقليدية والتعليم الأوروبي (Culture Traditionnelle et Instruction européenne): عالج مسألة التعليم بنوعيه الحر أو التقليدي عبر المدرسة القديمة والتعليم الفرنسي بالمدرسة الابتدائية، فهو يشير، منذ 1830 وإلى غاية 1839 المدرسة كانت وجهة المازونيين لتعليم أبنائهم في إطار التعليم الحر، والتي خضعت للتوسيع على عهد السلطات الاستعمارية في إطار الإشراف ومراقبة التعليم الحر، من منطلق القضاء على المقاومة، تتولى تدريسهم مختصر الخليل والفقهاء المالكي³⁶. كانت العائلات تتولى إطعام الطلبة القادمين من البعيد، وخصص وقف لصالح المدرسة منها مقهى عربي حبس، كان يقصده الطلبة كل أربعاء للاستراحة، عموما بقيت المدرسة تشكل منفذا للمحافظة على مكانتها بعدما فقدت مكانتها الاقتصادية مع تراجع الحركة التجارية بأسواقها، وتراجعت صناعة الحرف بها، ليبقى الجانب الثقافي مجال عمل لسكانها. في مقابل هذا التعليم التقليدي أوجد الفرنسيون تعليما فرنسيا استقطب بعض المازونيين رغم صعوبة ظروفهم إلا أنهم تحمسوا لتعليم أبنائهم، فاكتمسبوا الثقافة الفرنسية وتخرجوا بشهادة، واكتسبوا وعيا وظيفوه في القضية الوطنية، ومن خرجها يوسف لوكيل، سي عزايز صادوق، وسي عدة الكتروسي، برزوا بمواقفهم السياسية فكتبوا عن معاناة السكان في الجرائد منها وهران المساء، وصدى وهران مثلما هو الحال مع سي عزايز³⁷.

- الإضطرابات الكبيرة (Les Grands bouleversements): تناول أهم المحطات التاريخية التي ميزت المنطقة باختصار مبينا أن الفترة الممتدة من 1830 إلى 1845 لم يتم السيطرة الفعلية والمحكمة على المنطقة، حيث الاستيطان كان ضيقا، كما أن قبائل مازونة مستها سياسة الحصر بقرار صدر في 18/11/1869، فقسمت إلى ثلاث دواوير: بوماتع، بوعلوفة، القصبة. إضافة إلى هذا يشير أن الحركة الاستيطانية بدأت في المنطقة فعليا بعد 1870 بعد الاستيلاء على الأراضي، ومعها بدأت تعرف المنطقة حركة اقتصادية استعمارية؛ ففي سنة 1873 تقرر إنشاء قرية استعمارية عرفت باسم رونو (سيدي أمحمد بن علي حالي)، وإنشائها كان له انعكاس على مازونة بفقدانها للأراضي الجيدة لصالح إقامة المرافق والمنشآت والمباني الاستيطانية. أرفق بمخطط بياني للإستيطان بمازونة³⁸.

- البيبولوجرافيا: أورد قائمة المصادر والمراجع باللغتين التي تم الاعتماد عليها في كتابه مصنفا إياها بالفرنسية والعربية مع التميز بين كتب التاريخ والرحلات والجغرافيين وحتى التراجم الواردة بالعربية³⁹.

3- القيمة العلمية للكتاب: يكتسي هذا الكتاب على صفة الكتابة التاريخية المحلية تبعا لما جاء فيه من أفكار ومعلومات مختلفة حول مازونة والظهرة عموما، والتي يمكن التماسها في عدة نقاط:

- يندرج هذا الكتاب ضمن الدراسات المنوغرافية لدراسة المناطق والعشائر، وهذا في حد ذاته يعطيه قيمة علمية على طراز الدراسات الأوروبية التي اشتهرت بهذا النوع من البحث، بحيث أعطى مسح شامل لكل الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية مسبوقة بتقديم جغرافي للمنطقة مع احترام التسلسل الزمني للأحداث التي شهدتها المنطقة، وهو ما لمسناه في الكتاب، حيث حاول إعطاء لمحة جغرافية وبشرية لمنطقة الظهرة، والولوج من خلالها إلى مازونة كمدينة، ثم عرج وأعطى مسحا تاريخيا للمنطقة منذ العهد القديم مروراً بالفترة الوسيطة فالحدیثة ثم المعاصرة، حيث بين فيها مجالها ووضعها السياسي والاقتصادي، والثقافي طيلة الفترات التاريخية من العهد القديم إلى المعاصر⁴⁰.

- يندرج كتابه ضمن البحوث والدراسات المهمة بالتاريخ المحلي، فهو كان سباقا في هذا المجال على مستوى الجزائر، وكان الأول من أبناء المنطقة الذي وظف تخصصه وما تعلمه في خدمة منطقتة، وحاول إحيائها وخصها ببحث علمي يتناول تاريخها وماضيها الحضاري، لذلك نشتم هذه المحاولة أو المبادرة المبكرة في حق مدينته، التي رآها بزخمها وإشعاعها الفكري والحضاري، وبما شكلته كموقع استراتيجي متميز سياسيا وعسكريا في مختلف الحقب التاريخية، فأخذته الغيرة إن صح التعبير لأن يبرزها ويذكرها ببحث مستقل يخصصها، ويخرجها من خانة الدراسات العامة التي يرد فيها مازونة عرضا كاسم مقارنة بأقرانها من الحواضر كمستغانم وتلمسان وتنس.

كما أن هذه الدراسة ليست الوحيدة التي حضيت بها مازونة والظهرة عموما عند مولاي بلحميسي، بل كانت هناك قبلها دراسة أخرى، وهي الأولى أولت اهتماما للمنطقة من خلال كتابه حول تاريخ مستغانم، حيث أثر إلى عرض الأهمية الجيوستراتيجية لمنطقة الظهرة، وما احتوته من عنصر بشري، وحواضر فرضت به نفسها في التاريخ.

- بالرغم من هذه الدراسة صغيرة الحجم لا تتعدى 100 صفحة إلا أنها من الدراسات المهمة كونها حاولت تغطية كل المراحل التاريخية، وكل الحضارات التي تعاقبت على الظهرة ومدنها من العهد القديم إلى المعاصر، مع التركيز على أهم الأحداث التاريخية التي ميزت المنطقة في كل مرحلة فمثلا في الفترة العثمانية ركز على الدور السياسي لمازونة كعاصمة ثم تأييدها لثورات الفلاحين، ثم في الفترة الاستعمارية ودورها في المقاومة الوطنية، نهيك عن عرض أهميتها الاقتصادية في كل المراحل تبعا لطبيعتها الجغرافية وثرائها بالأراضي الجيدة ووفرة مياهها، وكذا موقعها في مفترق الطرق التجارية⁴¹.

- نجد المؤرخ بلحميسي يعترف في كتابه ضمنا بصعوبة إنجاز عمل تاريخي يغطي كل الفترات بشكل تام حولها بسبب عدم توفر المادة العلمية وقلتها، الأمر الذي جعله يستغل أي معلومة من أي مصدر شفوي أو مادي من بقايا أثريين أو منقوشات حفزية لتغطية أي فراغ في مرحلة معينة، لذا نجده اعتمد الرواية الشفوية لدى السكان المحليين فيما يخص أصل التسمية، كما اعتمد النقوش والبقايا الأثرية التي وجدت كمادة يغطي بها النقص، وصولا إلى كتابات الرحالة المسلمين ومن بعدهم الأوروبيين وكتب التراجم والسير، لكن في نفس الوقت عندما وظفها واعتمد عليها في الحدث الواحد لم يرجح مصداقية مصدر على

حساب آخر، بل نجده أثناء المعالجة في أكثر من عنصر أو موضوع يسرد كل الروايات أو الآراء مع عدم الترجيح بينها من منطلق قلة المادة، والمعايير لا تسمح له بترجيح أو إبداء رأيه، وهذا في حد ذاته ذكاء علمي منه لمعالجة النقص في المادة العلمية.

- اهتمامه بالمدينة جعله ينطلق في البحث من الاهتمام بتاريخ الظهرة كمجال استراتيجي مرت عليه عدة حقب تاريخية، وعرف العديد من الأحداث، ومازونة جزء من هذا المجال. ألغى الجهوية المحدودة المرتبطة بالمدينة فقط، وربط تاريخ المدينة بتاريخ المنطقة كجزء ضروري، وارتباط تاريخهما معا، وخير دليل عندما أقر معالم الوجود الروماني أو أصل التسمية تم الاستعانة باكتشافات وحفريات قرب مدينة سيدي أمحمد بن علي، إضافة إلى وجود آثار رومانية بمديونة⁴².

- أثناء المعالجة احترم الإطار الأكاديمي بحيث عالج كل مرحلة تاريخية بمصادر ومراجع متخصصة، ففي القديم ارتكز على الحفريات ودراسات الأوربيين الأثرية، بينما في العهد الفتح الإسلامي فمصادره كانت كتب الرحالة والجغرافيين العرب، بينما في الفترة الحديثة والمعاصرة على العهد العثماني والاحتلال الفرنسي فأغلب مادتهما مستقاة من المصادر الأجنبية من كتابات الرحالة الأوربيين أو العسكريين ممن ساهموا في الأحداث بالمنطقة منهم الضابط شارل ريشارد.

الخاتمة: تُصنف دراسة مولاي بلحميسي ضمن رغبة شخصية وسبب ذاتي تمثل في محاولة الكتابة حول مدينته التي كان لها صيت في التاريخ، إلا أنها تعد من الدراسات المبكرة والأولى التي فتح بها المجال للاهتمام بالتاريخ المحلي، وهذا رغم محدوديتها؛ فهي تعد البذرة واللبنة للدخول في عالم التأليف للتاريخ المحلي للمناطق، وإن كان مجاله في هذه الفترة مقتصرًا على الأوربيين، ليتطور لاحقًا داخل المدرسة التاريخية الجزائرية، ويأخذ بعدًا أوسع وحيثًا داخل الدراسات الأكاديمية والأطاريح، وهذا التغير والتطور طبعي كون أن مجال التغطية للأحداث في الأطاريح بشكل عام تمت تغطيتها لدرجة أصبحت تدخل مجال التكرار، مما أدى إلى ضرورة الاهتمام بالخاص والجزئيات التاريخية كأحداث في مجالات جغرافية أو موضوعاتية محددة.

الهوامش:

1- هو بن علي بوقرط بن أحمد ولد الحاج أحمد ولد الحاج محمد ولد مصطفى ولد أحمد بوقرط، ولد في 4 فيفري 1904 بمازونة، التحق بالمدرسة الابتدائية بمازونة، والتحق بتلمسان لمزاولة الدراسة التكميلية بمدرسة Décieux. ثم اضطر إلى العودة إلى مسقط رأسه، واشتغل في دكان الحلويات. بدأ نضاله السياسي في وقت مبكر، وكان شغوفًا بمطالعة الجرائد والصحف، وفي 1924 انضم للتيار الشوعي، وبدأ عمله بتحرير مقالات باسم مستعار في جريدة النضال الاجتماعي. زاد نشاطه مع الشيوعيين

مما عرضه للاعتقال عدة مرات، وفي 1936 عين كأول أمين عام للحزب الشيوعي الجزائري، وبعد الحرب العالمية الثانية وبخاصة بعد أحداث 8 ماي 1945 انفصل عن الحزب، وتوفي سنة 1983 على إثر سكتة قلبية. ينظر شهادة الميلاد الصادرة عن مصلحة الحالة المدنية لبلدية سيدي أمحمد بن علي بولاية غليزان يوم 2016/07/31.

-CAOM. 51/13. Préfecture d'Oran. Bulletin des renseignements. Oran 11/9/1939

-Benjamin Stora. Dictionnaire biographique des militants nationalistes Algériens (1926-1954). L'harmattan. Paris. P.341.----
-Benali Boukort. Le Soufle du Dahra. Entreprise nationale du livre. Alger. 1986. P. 11.

2- يوسف لوكيل ولد محمد الشيخ ولد عبد القادر ولد محمد ولد مصطفى ولد بخدة، ولد سنة 1884، درس بالمدسة الابتدائية، ثم انتقل إلى ثانوية بوزريعة ثم قسنطينة، ثم إلى فرنسا لدراسة الحقوق، شغل منصب محامي، وألف كتاب ماونة عاصمة الظهرة، وكتاب "من الظهرة إلى الصحراء، من مازونة إلى جبل عمور"، وبرز في مجال تحرير المقالات الصحفية التي كان يعبر فيها عن مواقفه ويكشف انتهاكات الإدارة الاستعمارية منها جريدة وهران الصباح، تعرض لمضايقات كثيرة كمنعه من مزاوله مهنة المحاماة، توفي في 29 أكتوبر 1940. ينظر: طاهر جنان. مازونة عاصمة الظهرة. مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. 2005. صص 71-72.

3- الشيخ أبو طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني، فقيه من أعلام مازونة، متخصص في العلوم الفقهية والكلامية، اشتهر بحماسة الديني الجهادي حيث شارك رفقة طلبته في تحرير وهران، توفي في 1818، من أشهر تلاميذه محمد بن علي السنوسي، والشيخ بوراس الناصري. ينظر نفسه. ص 62.---- 4- أحمد رنيمة. مولاي بلحميسي (1930-2009) مؤرخ البحر والبحرية في الجزائر. عصور الجديدة. العدد 3-4. 2012/2011. صص 289-290.

5- Moulay Belhamissi. Histoire de Mazouna (Des origines à nos jours). SNED. Alger. 1981. PP 1-91.----6- Ibid. PP. 10, 21, 27, 33, 43, 57, 89.----7- Ibid. PP.7.----8- Ibid. PP.8-9.----9- Ibid. PP.13-14.----10- Ibid. PP.17-18.----11- Ibid. PP.18.----12- Ibid. PP.21.----13- Ibid. PP.21-22.----14- Ibid. PP.25-28.----15- Ibid. P27.----16- Ibid. PP.27-28.----17- Ibid. P28.----18- Ibid. PP.28-31.----19- Ibid. P33.----20- Ibid. P.34.

21- مغرواة إحدى بطون قبيلة زناتة البربرية، عرفوا بالقوة يعود نسبهم إلى مغراون ينصلتين بم مسرين زاكيا بن ورسك بن ألدريت بن جانا، وهم إخوة بني يفرن.... من فروعهم نجد بني يليل، وبني زنداك، وبني رواو.... تنتشر أراضيهم بالمغرب الأوسط بين شلف وتلمسان إلى جبل مدبولة وما إليها. ينظر: أحمد بحري. حاضرة مازونة " دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث (1500-1900). رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية. جامعة وهران. 2012/2013. ص. 16

22- Ibid. PP. 34-36.

23- أبو عمران موسى بن عيسى المازوني عالم جليل له العديد من المؤلفات منها: ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، حلية المسافر وأدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه. ينظر: أحمد بحري. المرجع السابق. ص. 245.

24- Ibid. PP. 37-39.----25- Ibid. PP. 43-44.

26- اندلعت الثورة في 1804 بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي تحت تأثير الظلم والاستبداد الذي مارسه السلطة العثمانية وأتباعها من القبائل المخزنية في حق السكان، وتزامنت مع تدهور الوضع السياسي والاقتصادي للإيالة خاصة بعد تراجع مداخيلها من الجهاد البحري. ساندت العديد من القبائل الجزائرية هذه الثورة ومنها قبائل منطقة الظهرة، التي شاركت فيها ضد سلطة البياي مصطفى المتزلي، وأعلنت العصيان عليه. ينظر: أحمد بحري. المرجع السابق. ص. 45، ص. 48.

27- Ibid. PP. 44-47.----28- Ibid. PP. 49-52.----29- Ibid. PP. 57-58.----30- Ibid. PP. 59-61.

31- Ibid. PP. 63-65.----32- Ibid. PP. 67-71.----33- Ibid. PP. 72-83.----34- Ibid. PP. 75-76.----35- Ibid. PP. 79-82.----36- Ibid.

PP. 79-82.----37- Ibid. PP. 33-34.----38- Ibid. PP. 89-91.----39- Ibid. P8. PP. 27-28. PP. 33-36.. P. 57.----40- Ibid. PP.

43-47. PP. 59-60.----41- Ibid. PP. 21-23.---- 42- Ibid. PP. 15, 17, 30, 53, 68, 72, 77, 78, 87, 88.